وإن شئت فقل : مجموعة من المشاعر ؛ بدأت بين كثبان الرمل، وانتهت بأحاسيس الفقد وآلام الرحيل، وبين هاتين المرحلتين توقفت في محطات عبور ، فلاح للناظر من خلالها جبل لا يهتز حتى لا يرى انكساره، وأعين تبحث عن دموع لتشترى، وفي زاوية بعيدة وقف شخص لا يستطيع أن يعبر عما في نفسه، وآخر يملك التعبير ولكن لم يجد من يفهمه، فصبر على أعاصير الحزن طمعا في أن يرى غدًا أفضل. كم نحتاج إلى أن نكتب أنفسنا حتى نعبر عنها، فهمهم ويشعر بهم. فهذه المقالات لا تمثل حياة شخص، وإنما تحكي فما نكتبه ليس بالضرورة أن يكون جزءا من حياتنا، ولكنه بلا شك جزء منا وقطعة من قلوبنا. ولها تأثير قوي في طريقة تعامله مع الحوادث والأشخاص، سواء كانت هذه المشاعر جبلية فطرية تتمثل في العواطف، أو كانت حادثة طارئة تترجم إلى أحاسيس. فإن هذه المشاعر ركن عظيم تقوم عليه شخصية الإنسان، كانت، ذكر عن أحد الشعراء أنه طارت منه ورقة قد دون عليها قصيدة في يوم شديد الريح، فلحقها طويلا حتى أعيته، وبعد يرون، ولذلك من الخطأ أن تزدري مشاعر الناس مهما كنت تراها صغيرة، فإن صاحبها ينظر من منظار آخر لا يتبين لك، وقد لا يهمه أن تصل إلى حقيقة مشاعره، إن حاولت أن تزدري هذا الشيء الذي يراه جزءًا من حياته. الأماكن، الذكريات، تمثل أمرًا بالغ الأهمية في حياة صاحبها، فتعامل معه بحذر حتى لا تحزنه في وقت يحتاج منك إلى كلمة تشجيع أو مواساة، أو فعلت ذل ذلك على الأقل تشعره بأنه ثمة شخص عرف كيف يفكر، وبماذا بالحلية. بني أن شيء كبير لواقع ولاكن تعلن جرح عميق وحزن لا لا تخجل أن تي ولكن تعامل بيجها، فلا تمتع من يشعر. بل وهم لا يريدون ذلك أصلا، لكن جميل أن يستشعروا أنه ثمة أناس قريبون منهم. هذا إن لم يروه شيئًا بقلم اعينه مهمانى تافها وتفكيرا قاصرًا أصلا. المشاعر التي يبتها الناس نحو ما يحبون أو يميلون إليه لا يعني أنه شيء كبير بالفعل، فقد يكون شيئًا صغيرًا على أرض ضون الواقع، ولكن تعلق القلب به جعله كالجبل، وبخسارته يخلفه من حياة تمثل جرح عميق وحزن لا ينضب. لا تخجل أن تبت مشاعرك، ولا يلزم أن تحدث بها شخصا ما، ولكن تعامل بها على أرض الواقع، فإذا مر بك ما ـخـ يهيجها، رها بالحياة. ولذلك كان من علامات سعادة المرء إذا كبر سنه أن يرق وتذهب عنه القسوة ـ إن كان قد اتصف بها في سالف أيامه ـ فتجده في آخر عمره قادرا على التعبير الدموع حتى تبل فؤاده فيعود رقيقا لينا. ومن أكبر علامات الشقاء أن يتصف قلبه ـ وقد تقدم سنه ـ بالقسوة والغلظة حتى ينكره ويجد بينه وبينه الوحشة وهو بين جنبيه. ما أجمل أن يتمتع المرء بالمشاعر المتدفقة الجياشة، والأجمل أن يتعامل معها كجزء من حياته، ولا يرى أن التعبير عنها نوع من الضعف، فإنه لما عجز البعض أن يحوز هذا الكنز، جعل الاتصاف به نوعا من العجز، ولكن الحقيقة أن القوي هو الذي يستطيع أن يسخر إمكانياته لخدمة نفسه حتى يكون شخصا طبيعيا، فكيف إذا كانت هذه الإمكانيات تتمثل في المشاعر التي تبعث الطمأنينة في النفوس، وبابًا إلى قلوب الآخرين، فيجدون عندك القلب الحاني الذي يستشعر آلامهم ويشجع آمالهم، ونزع رداء الجفاف الذي يحاول أن يلتف حولك. فإذا أردت أن تبلغ الغاية في فهم مشاعر الآخرين، فانظر لى مشاعرهم بعيونهم لا بعينك، واستشعرها بأحاسيسهم بإحساسك، فيسهل عليك أن تجمع لهم ما تشتت من أفكارهم فتدلهم على الأمان. مشاعري فانظر إليها بعيني لا بعينك، فهنالك ستعلم من أنا. بين الفينة والأخرى يأخذني الطريق؛ أو أنا أسلكه نحو مكان لم يزل مقيما في ذاكرتي، قائما في مخيلتي، فأمر به وقد تغيرت معالمه، لكنني أرى فيه الطفل الذي كان يظن أن عجلة الأيام ستقف عند ذلك الحد، ولن يكون ذلك الشخص الذي تغيرت ملامحه كما تغيرت رسوم ذلك ثم علت وارتفعت حتى صارت جبالاً ـ هكذا كنا نسميها ببراءة الطفولة . وجه البسيطة يعيش مثل سعادتنا. كانت الرحلات غالبا ما تكون مع أبناء الجيران، في الوقت الذي لا يميز الداخل إلى البيت لأول مرة أبناء صاحب الدار من أبناء جيرانه. وكبار عقلاء يتجاوزون توافه الأمور لتبقى علاقات الصغار متينة، ويزرعون الوفاء ولو كان المقابل لا يسقيه. كنا نلعب ذكورا وإناثًا لأننا حينئذ لم نكن نحمل نفوسا تعرف الطمع، بل نتعامل وكأننا إخوة ومحارم. بل السبب الرئيس وأمين لي هو أننا لم نكن نحمل مسؤوليات تنسيك نفسك، وتلهيك عن عن لذة الـ مصالحك، فإذا به وقد أتاك من أخرجك إلى المكان رجب كل فلما قلت كنت را قلت ذات مرة لصاحب لى ـ وقد غبنا عن بعضنا طويلا السلام كوتا بسبب مشاغل الدنيا ـ : أتدري أصبح يراودني هذه الأيام مدرجات شعور دائم بالشوق إليك، فقال . العمر. وتقربك لأنها تأنس بك، كل مكان يحمل ذكرى قد مرت بي مهما كان نوعها. وبدأت أشتاق إلى كثبان الرمل التي كنت أظنها جبالا، فلما قادتني إليها قدماي بعد زمن، ولم يبق منها إلا مرتفع صغير يكاد يعانق الأرض المنبسطة فقلت في نفسي: حتى الرمال تأبى إلا أن تكون من عداد الذكريات. وأضيق ذرعا بمن يدخل إلى عالمي هذا بموضوع يخرجني عن لذة الحنين إلى الذكريات. كنت ذات مرة مع أحد كبار السن ممن أحب مجالسته، وقد كان رجلا شديدا، فأخذني العجب حينما حدثني بموقف مر به، قال : أدركتنا الصلاة فوقفنا على جانب الطريق لنصلي، وفي أثناء الصلاة، جاء رجل ليصلي معنا، عرفت من قدميه أنه فلان، فوالله لأ قبلها ! العَجَب لم استغرب كيف عرف أقدامه بعد هذه المدة الكبيرة؛ قلبا، وها نحن بين الحين والآخر

Summarized by © lakhasly.com

نفتش في أنفسنا بقصد أو بغير قصد، فنجد في زوايا قلوبنا، ما لم نكن نتخيل أن يكون له أثر في حياتنا، لعلنا نظفر بشخص يفهم شعورنا، ليس لكوننا نريد منه حاجة أو ة يحملنا الاضطرار إليه، ولكن ربما لكوننا نستشعر أننا بحاجة بالغة ولأجل ذلك كان أقرب الناس إليك في هذه المواقف هو الشخص الذي تشعر أنه يحس فعليا بما تقول؛ والأجمل أن شاركنا هـ يقول لك: وأنا أجد . لا أنسى ما حدث معى ذات مرة، حيث كنت أكلم اشخاص شخصا في الهاتف حول موضوع يشكل بالنسبة لي أهمية بالغة، فلم يتيسر لي، وكان أن بجانبي أحد جلسائي، وتربطني به علاقة ود، فإذ بوجهه يتغير ، فقلت له : مالك ؟ قال : أخذني الحزن لأنني استشعرت أنك تريد هذا الأمر، ولكنه فاتك ولم يتحقق لك. فأين تجد مثل هذا النفس الجميل، ولكن على الأقل يشعرك أن ثمة شخصا يهتم بك ، أو تعني له شيئًا، حرمانك من أمر تحبه، أو فقدانك لشيء تتعلق به. ولذلك، ولكن الأجمل والأنفع أن ننظر إلى هذه الذكريات من زاوية أخرى تقودنا إلى الوفاء لمن شاركنا هذه المواقف، وقاسمنا فرحة الأمس، حتى ولو كانت تتمثل في لعب طفل بين كثبان رمل لم يبق منه إلا صورة في الذهن، فقادك إلى تذكر أشخاص ربما في كثير من الأحيان لا تعلم في أي مكان حَلُّوا، فكلما تصفحت أوراق تلك الأيام ظهروا لك وت وكأنهم يقولون: كن وفيا لأيامك، ها قد مرت الأيام. لم أتصور أنها ستمر بهذه السرعة، وأن كثيرا من المواقف والأحداث ستصبح حديث الذكريات، وشيئا من الماضي، أحدث نفسي أو غيري بها قائلا: «أتذكر ذلك الموقف؟ أتذكر والآهات. وربما كنا ما أردنا، فتأتي الأوامر الصارمة من الوالد بالمنع، وننسى أنه كان يكدح ليل نهار، وحبس نفسه عن كثير من الأماكن والمجالس والعلاقات ليبني لنا مجدًا، ويخلّف لنا سيل كم كنا نرى تسلّط الأخ الأكبر، ويسا وإذا جاء ليبين لنا أن ما فعله إنما كان بدافع المحبة، شخصياتنا. للأخت الكبرى، الذي ونجعلهم في صراع من أجلنا حتى في مشاعرهم، بين أن التي يستمروا على نهجهم في التربية وبين ما يعانونه من الحزن منعه حيث لم نمكنهم من تفهم مشاعرهم. ثم تمر الأيام تلو الأيام، وإذ بذلك الصغير يجني نجاحاته يوما بعد يوم، والأخ الأكبر الذي كان يراه متسلطا ، والأعجب من ذلك، أن ذلك الصغير الذي صار كبيرًا مثل بدأ يربي أبناءه بنفس الطريقة التي كان يرفضها ويحاول المش التخلص من قيودها، والاتهامات اللاذعة، ومع ذلك يستمر في سيره بغية أن يحقق لأبنائه العيش الرغد ويساعدهم في تكوين الشخصية التي يستطيعون من خلالها وتكونين أما، وحينها ستعرف الشعور الذي كان يخالط أباك حينما كان يمنعك من كثير من الأمور التي ترى أن منعها تعنت، الذي كان يقوم به والدك. خوفا عليك، فلما أخذت مكانه، إذ بك تفعل مثل صنيعه، حين كان يمنعك من أشياء كان ولكن منعه الخوف عليك أن يحضرها ستكبر يا صغيري. وتكون أبا، وتكونين أُما، وتعرف أن ذلك الشخص الذي كنت تتوهمه قاسيا، والآخر الذي تراه متسلّطاً، لم يفعل ذلك ليجني منك ربحا ماديا، أو حياة فارهة، بل إنه قدم لك جهده وسهره، وحرصه الذي أتعب قلبه، لتعيش هانتا، دون أن يكلفك شيئًا، وقد وتعلم أن ذلك الشخص الذي عاش من أجلك ـ رغم ما فيه من النقص ـ شخصية لن تتكرر، ولكن لأنه كان وأنك كنت نبضه. معد كلما نظرت إلى ذلك الجبل الشاهق، علمت مقدار ما يتصف . رغم . ما يعتريه من العوامل سينا، وزن والأحداث المتعاقبة، التي تحاول أن تنحته حتى لا يبقى منه أثر، وإن لم يتحقق لها ما أملته؛ فلا تيأس من أن تفتت بعضه، دي عالم فصخرة من هنا، وحصاة من هناك، حتى تقوم فَرِحَةٌ بأنها كرر له حققت شيئًا، ومع ذلك تجد ذلك الجبل لا يزال شاهقا؛ فتراه وقد تدفقت منه العيون والشلالات، لم يفكر أحد أن يبذل لذلك الجبل شيئًا، يعني أنه ليس بحاجة إلى شيء، فتراهم وتراه ثابتاً شامخا . وكثرة النحت في ذلك الجبل. وهكذا المرء المعطاء، هو كالجبل فى شموخه وكبريائه يعطي بلا حدود، ويبذل بلا قياس، لا ينتظر جزاء من أحد. ولا كلمة ثناء من آخر . وربما يتألم من الداخل، ولكن يمنعه من الأنين أن ناسا ينظرون إليه، ويرونه قدوة، فيبتلع ألمه، لعلمه أنه بانهيار ستنهار أمة، وتهوي مبادئ، ليفرح بسقوطه، أو لأن يعلم أن صرخته ستذهب أدراج الرياح لعدم وجود من يفهمه. ومع ذلك تجده يعطي، فيجدون عنده المرهم الشافي، وربما يبيت على مدى الأيام يرقب أن يأتيه من يشعره أنه يحس بلوعات قلبه وتفتت فؤاده، ويراوده الحلم بذلك، لكن من يحس حقيقة بالجبل ؟ والعجب أنه مع شموخه، رأسه فيطأها، وبالرغم من ذلك يبقى شاهقًا رفيعا لا ينحني ولـ ولا يمنعه ما رأى من قسوة أولئك أن يمنع الآخرين، وقفت طفلتي ذات العامين محلقة ببصرها نحوي، يان الطفولي متكسر الأحرف: «بابا لماذا تبكي؟». حينها لم أكن أبكي، فلما قالت مقولتها تلك، لم أتمالك نفسي حتى هرولت نحوها مسرعًا؛ والعجيب أنها حين احتضنتها ، لم تصنع ما يصنعه الأطفال في العادة؛ واحتضنتني طويلا، وكأنها تقول: بل ولم تزل حلاوته تلامس قلبي إلى وقت لاحق، وموقفه أعذب ولا أخفى أنّ هذا الموقف جعلنى أؤمن بما كنتُ القب وهو أن الواجب على الوالدان يري أبناءه الصغار ـ لا سيما البنات ـ انكساره، سواء كان بسب مشكلة كبرى أو هم عارض، لأنهم إنما يرونه كالبناء البيان المتماسك الذي لا يتهاوى، فكيف إذا تزعزع البناء وانهارت جدرانه ؟ أعترف أن دموع بعض الأطفال تشعرك بالحزن حتى لو لم يكن لذلك البكاء سبب، فكيف إذا كنت تشعر بحرارة دموعهم وهي على خدودهم؟ لكن في نهاية المطاف؛ ورغما عنك؛ مواقف

Summarized by © lakhasly.com

تمر، وتجارب تتكرر، فلا الشخصيات؛ في مراحل هذه الحياة، تمر بنا الصور والأحداث، ولا بد أن تترك فينا أثرًا، وأيا كان نوع هذا الأثر، جميلا كان أم مشوها، سعيدا كان أو حزينًا، فإنه بالتالي يمثل جزءًا من أيامنا، وذكريات تطوف بنا في هجيع الليل إذا عم الظلام واشتبكت النجوم، ولأجل ذلك فلا بد للمرء أن يسعى سعيا حثيثا ليشيد بناءً متناسقا، ويترك أثرًا طيبًا في حياة من حوله ومن يلتقون به لأنه سيكون في هذه الحال جزءًا من حياتهم. فتعلقت نفوسنا وقلوبنا في أماكن مرورهم، وابتهجت وجوهنا ضاحكة لورود أسمائهم؛

Summarized by © lakhasly.com